مات عثمان بن مظعون

فبكته حبيبته، وبكته نساء، وبكاه الرجال، وسال دمع النبي ﷺ على خدي عثمان وهو يقبّله بحزن يملأ صدره.. مات ذلك العابد فكان مشهد جنازته والأحباب من حولها مشهداً يذيب الصخر والقلوب، ويذيب النواح.

ها هو ﷺ وقد (دخل على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه[1] كأنه يوصيه، ثم رفع رأسه، فرأوا في عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأسه فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه قد مات، فبكى القوم. فقال النبي ﷺ: مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله[2].

ثم قال: اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت ولم تلتبس منها بشيء)[3]

كانت عائشة هناك.. حزينة مثل بقية الحاضرين.. شاهدت دموعه ﷺ وهي تسيل على خدي عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقالت: (رأيت رسول الله ﷺ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميت «وهو يبكي، وعيناه تهرقان» فرأيت دموعه تسيل على خدّيه)[4] أي على خدي عثمان.. حزناً على ذلك الصاحب الزاهد.. القائم الصائم، الذي سافر عن الدنيا نقياً دون أن تلوثه.

شهد النبي ﷺ لعثمان بالنقاء والصفاء من الدنيا، فهل يعني ذلك أن نقول عن كل من كان مثله: إنك من أهل الجنّة.

---

(١) أي انحنى عليه وأكب.

(٢) طالبهم عليه السلام بالاستغفار لا من أجل البكاء، لأنه بكى قبلهم وهو لم يحرم البكاء على الميت لكنه نهى عن رفع الصوت نواحاً على الميت ويطلق عليه بكاء أيضاً، لكنه بكاء محرم كما مر في البكاء على حمزة رضي الله عنه.

(٣) سنده قوي وقد ضعفه الشيخ شعيب حفظه الله في السير (١/١٥٦) بل جعله واهياً ومتنه منكراً، ولعله اعتمد على قول الإمام الهيثمي: ولم أعرفهما، يقصد شيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شيخه، لكن نظرة سريعة على التقريب والتهذيب تغني عن ذلك، فشيخه عبد العزيز بن عمر بن مقلاص ثقة فاضل، ملازم لحلقة أبيه الثقة، ووالده كان يدارس العلماء ومن تلاميذه: أبو حاتم وأبو زرعة والعقيلي. قال أبو حاتم: صدوق ٥-٣٩١.

(٤) صححه الترمذي ٢-١٣٠ والبيهقي وله شاهد بإسناد حسن في «مجمع الزوائد» ٣-٢٠.

النبي ﷺ يبكي.. يشـــهد لعثمان بالزهد، وزوجته تشـــهد له بالصيام والقيام. ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟.. لا

لا يحكم لأحد - حتى عثمان - بالجنّة

كيـــف..؟ أمر مفزع، ومخيـــف..!! إذا لم يحكم لعثمان فلمـــن يحكم..؟ العواطف مرة أخرى تثور وتســـتنكر وتحتج؟ لكن الإسلام والتوحيد لا ينطلقان من العواطف ولا الأهواء، وإلاّ لأصبح لكل فرد دين، لأن كل فرد عالم من العواطف والأهواء..

الإسلام يعتني بالعاطفة.. يهذّبها.. ينقّيها من الشوائب، ثم يطلقها أطيافاً جميلةً في الأجواء، وحبنا لشخص لا يعني أن الحق معه أينما اتّجه.

الكل يشـــهد لعثمان بن مظعون بالصلاح فـــي دنياه، لكن النبي ﷺ غضب عندما حكم له بالجنة، لأن في ذلك تجاوزاً لمسؤوليات الإنسان.. فيه تزييف وادّعاء

عندمـــا قدم عثمـــان بن مظعون إلى المدينة مع المهاجريـــن.. أقبل عليهم الأنصار بالأيـــدي والقلـــوب والبيوت.. تنازع الأنصار.. كلٌّ يريد أن يفـــوز بأخ له من المهاجرين يســـكن معه فـــي بيته، ولم ينته ذلك النـــزاع الحبيب إلاّ بالقرعـــة، وعندما وصل دور القرعة إلى عثمان بن مظعون.. جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء، وهو رجل من الأنصار رضي الله عنهم، ولما أصابه المرض.. مرّضته أم العلاء، وشـــهدت له عند رسول الله ﷺ بالصلاح، لكنها شهدت له بشيء أغضب النبي ﷺ.

يا أم العلاء ماذا قلت عن عثمان رضي الله عنه..؟

تقـــول رضي الله عنها: (إن عثمان طار لهم في الســـكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري -والله- وأنا رسول الله ما يفعل بي.

قالــت: فوالله لا أزكي بعده أحداً. قالت: فأحزنني ذلك، فنمت، فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري، فجئت رســول اللــه ﷺ، فأخبرته، فقال: ذلك عمله)[1] الصالح.. تقبّله الله منه وجزاه الجنّة بما عمل، فأوحى بهذه البشرى إلى نبيه ﷺ، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره، وهل هناك فوق قول النبي ﷺ: وما أدري والله وأنا رســول الله ما يفعل بي.

إذاً فلا شــأن لأحد بما بعد الموت، ولا بالنوايا، ولا يكفي ظاهر العمل للحكم على الإنسان بأنه من أهل الجنّة أو النار، حتى في مدح الإنسان لأخيه وهو حي.. يأمر ﷺ بعدم الاندفاع، ففي أحد الأيام (أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال: ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك.. مراراً،

ثم قال ﷺ: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه)[2]

هاهــو عثمان بن مظعون رضــي الله عنه.. ها هم يحملونه نحــو البقيع، ومعهم رســول الله ﷺ بعد أن صلّوا عليه، وقد بيّن ﷺ لأصحابه الطريقة الأفضل للمشــي مع الجنازة، فقال: (الراكب يســير خلف الجنازة، والماشي يمشي خلفها وأمامها، وعن يمينها، وعن يسارها، قريباً منها)[3]

وكان ﷺ يقــول: (إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشــياً معهم فليقم «حين يراهــا»)[4]، وقال جابر رضي الله عنه: (قام النبــي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[5]، (فقلنا: يا رســول الله، إنها يهودية، فقال: إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)[6] (فقيل: إنه يهودي، فقال: أليست نفساً)[7]. ثم إن الأمر بالقيام لم يدم، فقد أمر الله نبيّه بالقعود.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٨٧).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٦٢).
(٣) سنده صحيح رواه أهل السنن عن زياد بن جبير حدثني أبي عن المغيرة.جبير ووالده ثقتان.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٥٨) والزيادة له.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (١٣١٢).

قال عليّ رضي الله عنه: (رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد، فقعدنا)[1]

وفي جنازة عثمان رضي الله عنه لم يكن رسول الله ﷺ قائماً ولا جالساً.. كان ﷺ يشارك في دفن صاحبه بيديه، ويفعل شيئاً يدلّ على مكانة عثمان في نفسه ﷺ، فبعد أن قال: (بسم الله وعلى سنّة رسول الله)[2] يقول أحد الصحابة: (لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنازته فدفن، أمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه[3]، كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنها، ثم حملها، فوضعها عند رأسه وقال: أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي)[4].

كل هذا الحب لعثمان بن مظعون.. كل ذلك البكاء وتلك الدموع، ومع ذلك فلم يزد ﷺ على وضع حجر كبير ليعرف به قبر أخيه عثمان عندما يزور مقبرة البقيع، فقط ليعرف قبره.

أما من تغريه عواطفه ونفسه بتزيين قبر حبيبه أو حبيبته بالرخام أو الجص أو البناء أو القباب، فقد قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سويته)[5]، ولأن (رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها)[6] فقد (نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[7] لأن فتح باب البدعة لا يعني أبداً مرونة في العقيدة.. هو تمييع للعقيدة.. تمزيق لها.. يعني التواءً نحو بدايات الشرك، والإسلام هروب.. كله هروب من الشرك وانحرافاته.

نهى ﷺ (أن يكتب على القبر شيء)[8]، والكتابة قد تكون الكتابة في نظر البعض شيئا يسيراً، لكنه ستفضي لا محالة إلى كتابة المدائح، والأشعار، والآيات، والمبالغات، وأشياء تجعل من القبور تحفاً أو متاحف أو معارض، أو مزارات لذاتها.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - (نسخ القيام للجنازة).

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٣٢١٣) حدثنا محمد بن كثير ومسلم بن إبراهيم، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي الصديق عن ابن عمر. أبو الصديق تابعي ثقة اسمه: بكر بن عمرو التقريب ١٢٦ وهمام بن يحيى ثقة التقريب ٥٧٤ وقد توبع قتادة عند الترمذي وابن ماجه.

(٣) في الحديث بعد هذه الكلمة: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود من طريق: كثير بن زيد المدني، عن المطلب عن أحد الصحابة (٣٢٠٦) المطلب صحابي وكثير ثقة وجرحه لا ينهض أمام توثيقه، التهذيب ٨-٤١٤.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (الأمر بتسوية القبور).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٨).

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٠).

(٨) صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (٢٠٤) لكنه لم يجب عن عنعنة أبي الزبير.

ولما ذكرت أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما رأته في الحبشة من نقوش جميلة وصور عجيبة، داخل كنيسة هناك يسمونها «مارية»؟ قال ﷺ: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[1]، وقال ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[2] لعنهم الله رغم أن بعضهم كان يريد تكريم نبيّه بإقامة ذلك المسجد، أو المعبد أو الكنيسة..

لعنهم الله لأنهم استمدّوا العقيدة من العواطف.. من التخاريف.. من غلوّهم وتطرّفهم في أنبيائهم، والعقيدة وحي متى ما خالطها غير الوحي فسدت، وحب النبي وتكريمه لا يكون بالغلوّ والتطرّف، بل بتنفيذ ما جاء به ذلك النبي.. بحفظه ونقله بأمانة دون زيادة أو نقصان، لأن الزيادة دين بشري، والنقصان تشويه للوحي، والزيادة والنقصان أورام خبيثة محتقنة بالكفر والشرك والبدع، وما جاء ﷺ إلاّ لاستئصال تلك الأورام واجتثاث الشرك وجذوره، والإسلام جاء ليبتدع الإنسان ويبدع في شؤون الدنيا زراعةً وصناعة وتجارةً.. مستمداً ذلك الإبداع وموجهاً بالوحي النقي، فإذا ابتدع الإنسان في الدين والدنيا تمزق بين اتجاهين، فإما أن يكون متطرفاً دينياً، أو يكون رقماً في آله لا ضمير لها ولا قيم، واليهود ممزقون، فما هي حالهم الآن بعد موت سعد بن معاذ.

اليهود بعد موت سعد بن معاذ

أشد رعباً وخوفاً من قبل، إلا من آمن منهم وامتلأ قلبه برحابة الإيمان وراحته، فالسيف الذي تركه سعد لا يزال محمولاً بكف فارس آخر، وهو على أتم الاستعداد لأي خيانة جديدة مهما كان حجمها.

لكن ماذا عن رؤوس الفتنة، ومحرضي الأحزاب (سلام بن أبي الحقيق) و(حيي بن أخطب) الذي أخذ على نفسه عهداً بمعاداة النبي ﷺ ومحاربته وعناده ما تردد الهواء في صدره.. رغم معرفته وتأكده من نبوته..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٣٠).

يبـدو أن حيـي بن أخطب قد قتل مع من قتل من بني قريظة، أما سـلام بن أبي الحقيـق فقد ورط الأحزاب، ثم خانهم جميعاً وهرب، بل خان يهود قريظة ثم انسـل كالحية إلى (حصن له بأرض الحجاز)[1] في خيبر بالتحديد، فهل سـيفلت من العقاب الذي حل ببني قريظة..؟

إنه يسـتحق أكثر من عقـاب، فهو الذي خطـط وتآمر وحـرض ونقض العهد، ولما اشـتبك أعداؤه وحلفـاؤه ترك الجميع وهرب، وهو في حصنه الآن.. بين نسـائه وأصدقائه.. يشـرب ويتنعم ويحلم بدمـاء محمد ﷺ وأصحابه.. يحلم بانهيار دولتهم في أقرب فرصة.

لكـن النبي ﷺ لن يترك هـذا المجرم وأحلامه.. إنه فيروس خطير يسـري في العقول، وينتشـر في الهواء، ويلوث الحياة، لذلك فقد أصدر النبي ﷺ أمراً بالقضاء على تلك الآفة.. أصدر أمراً بـ:

قتل سلام بن أبي الحقيق

وكان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج، الذين أرادوا منافسة إخوانهم الأوس في نصرة الله ورسوله، وفي مقدمتهم الشاب عبد الله بن عتيك.

يقـول البـراء بن عازب: (بعث رسـول الله ﷺ إلى أبي رافـع اليهودي رجالاً من الأنصـار، فأمـر عليهم عبد الله بن عتيك، «عبد الله بـن عتبة في ناس معهم»، وكان أبو رافع يؤذي رسـول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان فـي حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشـمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكـم، فإنـي منطلق ومتلطف للبواب لعلـي أن أدخل. فأقبل حتـى دنا من الباب، «فانطلق رجل منهم فدخل حصنهم.

قـال: فدخلت في مربط دواب لهم، وأغلقـوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهـم فخرجوا «بقبس» يطلبونه، فخرجت فيمن خرج، أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا» «فخشـيت أن أعرف، فغطيت رأسـي ورجلي كأني أقضي حاجةً، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل، قبل أن أغلقه».

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩).

ثـم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت «في مربط حمـار عند باب الحصن» فلما دخل الناس أغلـق الباب، ثم علق الأغاليق[1] على وتد، «ورأيـت صاحب الباب حيث وضع مفاتيح الحصن في كـوة، فأخذته ففتحت به باب الحصـن» فقمت إلى الأقاليد[2] فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسـمر عنده، وكان في علالي[3] له، «فتعشـوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت سـاعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم» فلما ذهب عنه أهل سـمره «هدأت الأصوات، ولا أسـمع حركة، خرجت» صعدت إليه «في سـلم» فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي[4] لم يخلصوا إلي حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم «قد طفئ سـراجه» وسـط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع. فقال: من هذا؟

فأهويت نحو الصوت[5] فأضربه ضربة بالسـيف وأنا دهش، فما أغنيت شـيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، «كأني أغيثه».

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ «مالك يا أبا رافع.. وغيرت صوتي. فقال: ألا أعجبك لأمك الويل».

«قلت: ما شأنك». فقال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

«فعمدت له» فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، «فصاح، وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره» ثم وضعت ضبيب[6] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره «ثم تحاملت عليه حتى قرع العظم» «ثم أنكفئ عليه حتى سـمعت صـوت العظـم» فعرفت أني قتلته، فجعلـت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى

---

(١) أي المفاتيح وهي ما يغلق بها الباب.
(٢) أي المفاتيح أيضاً.
(٣) غرفة.
(٤) أي إن علموا بي وأنذر بعضهم بعضاً.
(٥) توجهت نحو مصدر الصوت.
(٦) ربما يعني حرف حد السيف.

درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي «فانخلعت رجلي» فعصبتها بعمامة، «ثم أتيت أصحابي أحجل[1]، فقلت لهم: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية»

ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك، قام الناعي على السور. فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

«فقمت أمشي ما بي قلبة[2]، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ» فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء[3] فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته، «فبشرته». فقال لي: ابسط رجلك. فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط)[4].

أكرم الله عبدالله بن عتيك بتلك المسحة، بعد أن مسح عن وجه الأرض ذلك العفن المسمى «سلام بن أبي الحقيق».. كان عبد الله بن عتيك قلباً من حديد، وأعصاباً من فولاذ.. نشر الرعب في ذلك الحصن، وفي قلب كل يهودي.

لقد اهتز كل شيء حول المدينة وتزلزل، أما المدينة فهي الحضن الدافئ، والأمن الحاني الذي يقصده من استبد بهم الخوف، ويأوي إليها من تطارده وحوش الهموم والقلق من سوء المصير.

أحد الهائمين على وجوههم.. الموغلين في الشرك والدماء.. أحد الذين قدسوا صنم اللات وعبدوها وسدنوها، وحاربوا الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين من أجلها.. داهية تتضاءل أمامه الصعاب، وتنفرج لحيلته المضايق.. وقع في ورطة أدهى منه، فلم يجد سوى الإسلام ومحمد ﷺ مخرجاً منها.. هذا الداهية الثقفي المنحدر من جبال الطائف التي تضيق باللات.. يدعى (المغيرة بن شعبة) جمع الشجاعة والدهاء، عمه زعيم الطائف واسمه (عروة بن مسعود الثقفي) وقد كلفه دهاء المغيرة وحيلته الشيء الكثير، وأوقعه في ورطة كان المخرج منها:

---

(١) يرفع رجلاً ويقف على الأخرى من العرج.

(٢) أي أنه لم يشعر بالألم لشدة ما هو فيه من الأمر.

(٣) أي أسرعوا.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩) والزوائد له في (٤٠٤٠) و(٣٠٢٢).

إسلام المغيرة بن شعبة

فقد سافر المغيرة وهو مشرك مع قوم مشركين، ويبدو أنه قد صدر من هذه المجموعة ما أهان المغيرة وأغضبه، فغلا الانتقام والغضب والدهاء في رأسه، فأخذ أموالهم وتركهم نهباً لذئاب الصحـــراء وطيورها الجارحة، وترك ديتهم لعمه عروة، وعندما أحس بضيق الدنيا في وجهه.. أبصر طريق الفرج مفتوحا على بساتين محمد ﷺ وأنهاره العذبة.

يقول أحد الصحابة: (كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)[1] فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، والغدر والخيانة ليست من صفات المؤمنين.

لم يقره النبي ﷺ على قتله وسلبه لأولئك القوم رغم أنهم كانوا مشركين، والفرق بين ما فعله المغيرة وما فعله عبد الله بن عتيك بسلام بن أبي الحقيق هو أن سلاماً كان رأس فتنة يحرض على حرب المدينة ويخطط للغدر بأهلها، ثم خان المسلمين والمشركين معاً، وهرب إلى حصنه في أرض خيبر وكأنه لم يفعل شيئاً.

إن خطـــر أمثال ابن أبي الحقيق أشـــد من خطر جيـــش بأكمله، وخيانته لا يمكن أن تتوقـــف مادام يعتبرها هو وأتباعه ديناً يتعبد الله بفعله، وإذا كان الطائف قد ضاق بالمغيرة، فمكة تضيق الآن بداهية آخر، وبشجاع آخر وهو الآن يهرب منها. إنه:

عمرو بن العاص يهرب من مكة

كَلَّ دهاؤه وتلاشى كالسراب.. تأمل المكان الذي أوصله إليه شركه ودهاؤه فوجده بعيداً جداً عن المنطق، وأدرك أن بســـاطة هـــذا النبي وروعة دينه أعظم من أي دهاء، وأقوى من أي كيد.

توجه عمرو بن العاص وهو الرأس في قومه إلى حيث يلتجئ الضعفاء والمساكين.. توجه محمولاً بالعناد والحيرة إلى الحبشة حيث يلتجئ جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضـــي الله عنهم بعيداً عن أيـــدي قريش.. ركب عمرو بن العاص ســـفينة قذفته في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

أرض الحبشة، وأقام هناك إقامة متواضعة مقارنة بإقامة المؤمنين الذين يحظون بحب وحماية النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه، وفي أحد تلك الليالي الحبشية لمح عمرو بن العاص جعفراً رضي الله عنه فلحق به، وحدثه حديثا يقصه بنفسه علينا فيقول: (لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق.. جمعت رجالا من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا كبيرا منكرا، وأني قد رأيت رأيا فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت ان نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن ياتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا الرأي.

فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدما كثيرا، فخرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده.

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه، فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت اصنع. فقال: مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا؟ قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت لك أدما كثيرا.

ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

فغضب ثم مد يده فضرب بها انفه ضربة ظننت انه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه، ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله..؟!قلت: أيها الملك أكذاك هو؟

فقـــال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلـــي الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت)[1].

كتم عمرو إسلامه، وأشـــار للنجاشي بعدم إفشائه، لكن هذا الدين ملأه حماساً، وعندما رأى جعفر لم يصبر عن إعلان أخوته وإسلامه.

يقول عمرو: (فلما كان ذا عشـــية لقيته في الســـكة، فنظرت خلفه، فلم أر خلفه أحداً، فأخذت بيده، فقلت: تعلم أني أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فغمزني، وقال: أنت على هذا.

وتفرقنا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي، كأنما شهدوني وإياه، فما سألوني عن شيء حتـــى أخذوني فصرعونـــي، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلـــوا يغمونني بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى انفلت عرياناً، ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها فوضعته على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت: كذا -كأنها تعجبت مني-، وأتيت جعفراً فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال: ما شأنك؟

قلت: ما هو إلا أن أتيت أصحابي، فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتـــى طرحوا على وجهي قطيفة، غمونني بها، أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شـــيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية، أخذته من رأسها. فقال جعفر: انطلق.

فلما انتهينا إلى باب النجاشي، نادى: ائذنوا لحزب الله. وجاء آذنه، فقال: إنه مع أهله. فقال: استأذن لي عليه. فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل قال: إن عمراً قد ترك دينه واتبع ديني. قال: كلا!!

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث، زوائد ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيـــب عن راشـــد مولى حبيب بن أبي أوس عن أبي حبيب بن أبـــي أوس حدثني عمرو. يزيد تابعي ثقة، وراشد قال عنه ابن معين: ثقة يروى عنه المصريون، الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، أما حبيب فقال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

قال: بلى. فدعا آذنه فقال: اذهب إلى عمرو، فقال: إن هذا يزعم أنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت: نعم.

فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء حتى كتبت المنديل، فلم أدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت. ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفينة مسلمين)[1].

ها هي سفينة أخرى محملة بالإيمان.. قادمة من اليمن تحمل رجالاً يقصدون المدينة، لكن ربانها لم يكن بالمهارة المطلوبة، وبدلاً من أن تسلمهم المياه إلى ساحل على قارة آسيا.. قذفتهم على إحدى شواطئ أفريقيا، لكن لا بأس، فإن في الحبشة نسيماً عطراً يدعى النجاشي رضي الله عنه، وفيها أيضاً أحبة لرسول الله ﷺ لعل أشهرهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته الشابة المجاهدة الصابرة (أسماء بنت عميس) رضي الله عنها.. ها قد نزل أهل اليمن من السفينة.. تعالوا لنقترب منها ومنهم.. نتعرف على هذه الوجوه التي أرهقها البحر والسفر، وأبحر بها الحب والإيمان.. كان من بين هؤلاء المسافرين الذين زادوا على الخمسين ثلاثة أخوة من اليمن الطيب:

أبو رهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة

يقول أصغرهم سناً وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم أحدهما: أبو بردة، والآخر أبو رهم إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه)[2] على أرض الحبشة الرحبة.. في ضيافة ملكهم الكريم العادل (أصحمة) النجاشي، وعلى تلك الأرض الطيبة.

---

(١) سنده حسن رواه البزار. زوائد - ٢-٢٩٧: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون، عن عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص. وقد مر معنا الحديث في المجلد الأول. عمير حسن الحديث.. قال ابن معين ثقة، وقال مرة: ليس بشيء أي قليل الحديث، وقال: النسائي: لا بأس به. وعبد الله بن عون ثقة ثبت فاضل، ومعاذ ثقة متقن من رجال الشيخين وشيخ البزار ثقة ثبت يعرف بـ(الزمن).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٣٦).

لم تصفُ الحياة للمؤمنين، لكنها كانت بعيدة عن مخالب قريش على كل حال، كان من بين المهاجرين فتاة مؤمنة.. تمرد إيمانها على زعامة أبيها وسلطته، فأخذت بيد زوجها إلى أول مركب وأبحرت إلى الحبشة.. هذه الفتاة هي بنت زعيم قريش ومكة.. بنت أبي سفيان، واسمها «رملة» وتكنى بـ (أم حبيبة).

أم حبيبة تبكي في الحبشة

حزينة على أرض الحبشة.. بعيدة عن مكة والمدينة.. لم يكن البعد وحده الذي يعصف بقلب أم حبيبة، فزوجها الآن طريح الفراش مريض، وقد اشتد به المرض، وعندما أحس بأنامل الموت تدنو منه وتدب في أوصاله.. همس بمن حوله برسالة إلى النبي ﷺ.

رسالة قبل الموت

بعث بها عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمناً[1] إلى أرض الحبشة.. إلى النبي ﷺ يوصيه بأحب الناس إلى قلبه.. يوصيه بالحبيبة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان».

تقول عائشة رضي الله عنها: (هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ)[2] فوصلت الوصية، فبعث ﷺ الرد مع أحد المؤمنين القادمين على هذا القارب الذي يتهادى فوق مياه البحر نحو سواحل الحبشة.. إنه يرسو الآن حاملاً لأم حبيبة البشرى والعزاء، فقد انقضت أيام حدادها وأحزانها، وجاء صاحب رسول الله ﷺ يخطبها.

---

(١) روي أن عبيد الله مات نصرانياً على أرض الحبشة مرتداً عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثاً صحيحاً يثبت ذلك، إنما وجدت العكس وهو الحديث التالي والله أعلم.

(٢) سنده صحيح رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة. عروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيراً. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر - أمير مصر - قال ابن يونس وتلميذه الذهلي: ثبت. وقال العجلي والدارقطني: ثقة التهذيب ١٦٢/٦ والبقية أئمة ثقات.

استبشـــرت أم حبيبة بهذا الخبر، وفرح النجاشي، فقد وجدها فرصة ولا أنسب ليقدم هدية للنبي ﷺ:

النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهر أم حبيبة

مهرها كله.. هدية من النجاشـــي للنبي ﷺ، ثم أرســـلها مع صحابي كريم اسمه (شرحبيل بن حسنة)

عـــن ذلك تقول أم حبيبة رضي الله عنهـــا: (أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش «وكان أتى النجاشـــي» فمات بأرض الحبشـــة «وأن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وإنها بأرض الحبشـــة» فزوجها النجاشـــي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها من عنده» وبعث بها إلى رســـول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة «وجهازها كله من عند النجاشي»)[1]

عبـــرت أم حبيبة الحزن والغربة والبحر تحمل مهرها والفرح، فقد جعلها الله من أمهات المؤمنين.. من ســـيدات نساء العالم والجنة.. من حبيبات محمد ﷺ، وصار لها بدل الهجرة هجرتان، وأزاح ذلك العرس ما بها من شقاء وغربة وأحزان.

وصلت رملة ففرح بها النبي ﷺ.. تشاركه حياته ومعاناته وأفراحه، أما والدها أبو سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه، لذلك لم يصدر منه ما ينبئ عن استنكاره لذلك الزواج، فهو يعتبر النبي ﷺ زعيماً لا مثيل له، وإنه لشرف أن يكون صهراً لهذا الزعيم.

ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها، إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه، ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة أخرى، فـ:

---

(١) ســـنده صحيـــح رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد ٦-٤٢٧ والزوائـــد له: حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمـــر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة. عروة والزهري ثقتان مرا معنا كثيراً، ومعمر ثقة ثبت فاضل - التقريـــب (٥٤١) ولخص الحافظ القول في ابن المبارك: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير - التقريب (٣٢٠).

النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه، ومن حق أي عربي، بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به، لكن قريشاً تفكر بطريقة مختلفة، فهي لا تنظر إليه حقاً من حقوق خصمها، الذي يجب عليها أن تؤمن له الحماية ما دام على أرضها، وهذه من صفات قريش الكريمة العتيدة المحسوبة لها، لكنها تنظر إلى هذه العمرة على أنها هزيمة يلحقها محمد ﷺ وأصحابه بها كسابقاتها.

كيف يطوف هو وأصحابه وقد طردوهم بالأمس من مكة..؟ كيف يأتون مكة دون إذن قريش.. أين مكانة قريش وأصنامها..؟

سؤال ضاقت به مكة، أما رسول الله ﷺ فلم يبال برأي قريش.. لقد أراه الله في منامه رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد قص النبي ﷺ على أصحابه تلك الرؤيا، وبشرهم بأنهم سيطوفون ببيت الله بعد طول غياب عنه.. بعد خمس سنوات من الحرمان.

يقول عمر بن الخطاب: إن النبي ﷺ (كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)[1] فتهللت وجوه الصحابة، وأفرحهم الخبر، وأعدوا للسفر عدته، وأطلق اسم (الحديبية) على تلك العمرة فيما بعد. ف:

متى كانت عمرة الحديبية

وماذا جرى على أرض الحديبية البعيدة عن المدينة، والتي تقترب من مكة بمسافة ٢٢ كيلاً؟

يقول ابن عمر: (إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً)[2] و(كانت الحديبية سنة ست بعد مقدم النبي ﷺ المدينة في ذي القعدة)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) وهو حديث طويل.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) حديث حسن رواه البيهقي ٤-٩١ لكنه مرسل أرسله نافع ويقويه ما ذكره الحافظ في الفتح: وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع) وقد ثبت أن عمرة القضاء بعد عمرة الحديبية بعام.

ويؤكد أنس أن (عمرة الحديبية في ذي القعدة)[1] ولم تقتصر دعوته ﷺ على أصحابه، بل دعا الأعراب المتناثرين حول المدينة لمصاحبته، علَّ العمرة تذيب ما ببعضهم من جلافة وجفاء، لكن بعض تلك الجلافة كان صدأً لا يذيبه سوى اللهب.

موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة

موقف كالعار، فبعض الأعراب تصحر من رأسه حتى قدميه، فهم يتلهفون للنهب والسلب والغنيمة الباردة، وحساباتهم لا تعدو ذلك، وبعضهم وإن ادعوا الإسلام، إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم، وحشود الأحزاب مازالت في نظرهم تكمن خلف الأكمات والهضاب، أما نصر الله ووعده، والثقة برسوله ﷺ ووحي الله له، فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة.

إنه كسراب الصحراء الممتد داخلهم. لقد ظنوا أن قريشاً ستفني محمداً ﷺ وأصحابه، فلا داعي للمجازفة في معركة معروفة النتائج سلفاً، ولذا فقد ادعوا أنهم مشغولون بأموالهم وأهلهم وشؤون دنياهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم ويسامحهم ويعفيهم من المسير معه نحو مكة. لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله، ويعري حقيقتهم، ويكشف عارهم..

يقول العليم الخبير: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾[2]

آيات عظيمات.. آيات تخترق أعذار بعض الأعراب الواهية، لتنزع منها جبنهم وأسرار تخلفهم، ولابد أن المنافقين شاركوهم الرأي والتخلف.. ولذا لم يلح النبي ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٨).

(٢) سورة الفتح: الآيات ١١-١٤.

عليهم، فلا خير فيهم ولا في صحبتهم.. إنه ليس بحاجتهم عند جلاد السيوف والعراك، فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه، فقد (خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد القتال، وساق معه الهدي سبعين بدنة)[1] ساقها معه من المدينة لينحرها لله في مكة، فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له، فكذلك النحر.. لا يجوز لأحد كائناً من كان، إلا الله وحده لا شريك له. يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[2]

ولم يأخذ ﷺ الهدي معه فقط، بل أخذ السلاح أيضاً.. لم يأخذه ليقاتل به بل احتياطاً، فالطريق طويلة وشاقة، وقد تباغت قريش أو أعوانها من هنا أو هناك.

خرج ﷺ من المدينة، وكان عدد الذين خرجوا مع النبي ﷺ يصل إلى ألف وأربعمائة.. توجه إليهم النبي ﷺ بقلبه وحديثه، وبشرهم ببشرى تتطامن أمامها كنوز الدنيا ومساحاتها وألقابها.

جابر بن عبد الله رضي الله عنه أحدهم.. أحد الذين شملتهم تلك البشرى.. يحدث الدنيا فيقول: (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة)[3].

ويقول أحد هؤلاء وهو البراء رضي الله عنه: (كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة)[4]

وقال كل من معقل بن يسار والمسيب بن حزن رضي الله عنهما: (ألفاً وأربعمائة)[5] وقد يكون العدد أكبر من ذلك، أي أن عدد الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ قد يبلغ ألفاً وخمسمائة صحابي. قال أحد أبناء الصحابة الثقات واسمه: سعيد بن المسيب بن حزن عندما قال له أحد أصحابه: (بلغني أن جابر بن عبد الله يقول: كانوا أربع عشرة

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق سماعا ومن طريقه أحمد ٣-٣٢٣ حدثنا الزهري عن عروة، عن المسور ومروان.. وهذا سند البخاري في روايته لقصة الحديبية.

(٢) سورة الكوثر: الآيات ١-٣.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٥) مسلم الإمارة وابن سعد (٩٩/٢) واللفظ له.

مائة؟ قال: نسي جابر كانوا ألفاً وخمسمائة)[1] (وهَمَ جابر رحمه الله وهو حدثني أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة)[2]

توجهوا بمطاياهم وقلوبهم خلف رسول الله ﷺ نحو بيت الله الكريم، وبعد أن قطعوا مسافة توقف بهم النبي ﷺ في مكان يدعى «ذو الحليفة» وكان:

التوقف بذي الحليفة

ضرورياً لأداء العمرة، فالعمرة باختصار: طواف حول الكعبة، ثم مشي بين جبلي: الصفا والمروة، وقبل ذلك إحرام من مكان يقال له الميقات. وقد حدد ﷺ لكل بلد ميقاتها، بل حدد لجهات الدنيا كلها أماكن تحرم منها، فميقات أهل المدينة هو «ذو الحليفة» يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن النبي ﷺ وَقَّتَ لأهل المدينة: ذا الحليفة، ولأهل الشام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنازل، ولأهل اليمن: يلملم، هن لأهلهن، ولكل آت عليهن من غيرهن «من غير أهلهن» فمن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ[3] حتى أهل مكة من مكة)[4].

والإحرام هو أن ينوي المعتمر أو الحاج بدء ممارسة العمرة، أو الحج، أو العمرة والحج معاً، والأفضل أن يكون لباس المحرم عبارة عن قطعتين من القماش فقط، تسمى إحداهما إزاراً وتلف حول أسفل الجسم، وأما الأخرى فتسمى رداءاً وتلف حول أعلى الجسم، ولكن بطريقة خاصة حتى نهاية الطواف، وتسمى هذه الطريقة بـ (الاضطباع) والاضطباع هو: أن يلف الرداء حول أعلى الجسد مع تغطية الكتف الأيسر، وكشف الكتف الأيمن، أي إدارة الرداء من تحت الإبط الأيمن.

وهناك ملابس حرم النبي ﷺ لبسها على المعتمر والحاج منها: القميص والعمامة والسراويل والبرانس وهي مثل الملابس المغربية فيها غطاء للرأس والأحذية التي تغطي الكعبين. حيث قال: (لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) وخليفه (٨١) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) والبيهقي واللفظ له (٩٧/٤).

(٣) أي من كانت بلده أقرب من جميع المواقيت إلى مكة فيحرم من مكانه.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٣٠).

ولا ثوبا مسه زعفران ولا ورس ولا الخفين إلا لمن لم يجد النعلين فإن لم يجدهما فليقطعهما أسفل من الكعبين)[1]

وصل ﷺ إلى الحديبية، فقلد ما معه من الهدي، أي علق على رقابها شيئاً لتعرف أنها هدي سيذبح في مكة لله، وأشعر الهدي وعلمه بعلامة يعرف بها أنه هدي لله، وأحرم بالعمرة.

يقول أحد الصحابة: (خرج النبي ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كان بذي الحليفة، قلد الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة)[2] (وصلى بها)[3].

وأحرم معه بقية الصحابة رضي الله عنهم إلا صحابياً واحداً اسمه: (الحارث بن ربعي) ويعرف بـ «أبي قتادة» رضي الله عنه، في هذه الأثناء انطلق أحد الصحابة رضي الله عنهم مسرعاً نحو مكة لأداء العمرة ولشيء آخر، فقد صدر:

أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش

وقد اختار ﷺ لهذه المهمة رجلاً مناسباً اسمه: بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فخزاعة وكعب قبيلة واحدة.

يقول أحد الصحابة: (فلما أتي ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بالعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ)[4] وسار بشر يرصد تحركات قريش ويجمع أخبارها، أما أبو قتادة فلم يأمره ﷺ بالإحرام، لكنه أمره بمهمتين:

مهمتان لأبي قتادة

الأولى: جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٥- ٢١٨٧

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨) (٤١٧٩)

الثانية: التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان بين المدينة ومكة، ويبدو أنه قريب من ساحل البحر الأحمر ويسمى: (غيقة).

انطلق أبو قتادة ومن معه ينفذون أوامر نبيهم ﷺ، وفي الطريق رأى هؤلاء الصحابة شيئاً لا يقدر على نيله إلا أبو قتادة، أما هم فلا يجوز لهم ذلك، بل اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات. فماذا فعل أبو قتادة ولماذا يضحك أصحابه؟

أبو قتادة رضي الله عنه يقول: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم)[1] وكان سبب عدم إحرام أبي قتادة هو ما يقوله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري على الصدقة، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه محرمين حتى نزلوا بعسفان)[2] لكن خبراً وصل إلى النبي لله ﷺ جعله يوجه أبا قتادة إلى مكان يقال له: (غيقة) حيث تتواجد هناك قوة من المشركين تستعد للانقضاض على النبي ﷺ وأصحابه، وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

يقول أبو قتادة: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأُنبئنا بعدوٍ «بغيقة» فتوجهنا نحوهم)[3] (فقال ﷺ: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي. فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبا قتادة لم يحرم)[4] وقد تركوا (النبي ﷺ بالقاحة)[5] وهو مكان بين مكة والمدينة، (فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمرُ وحش)[6] (فلما رأوه تركوه)[7] (فجعل بعضهم يضحك إلى بعض)[8] (وأنا مشغول أخصف نعلي، فلم يؤذنوني به وأحبوا لو أني أبصرته فالتفت فأبصرته)[9] (وأنا رجل

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٢) رواه البزار ٢-١٨زوائد، وابن حبان ٩-٢٨٨ من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن عبيد الله بن عمر عن عياض بن عبد الله بن سعد عن أبي سعيد. عياض تابعي ثقة - التقريب ٤٧٣ وعبيد الله مثله وتلميذه ثقة كذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

حلٌّ على فرســي، وكنت رقاءً على الجبال، فبينا أنا على ذلك إذ رأيت الناس متشوقين لشيء، فذهبت أنظر، فإذا هو حمار وحش، فقلت لهم: ما هذا؟ قالوا: لا ندري. قلت: هو حمارٌ وحشيٌّ؟ فقالوا: هو ما رأيت)[1] (واستعنت بهم، فأبوا أن يعينوني)[2].

نهــض أبو قتادة (فركب فرســاً يقال له: الجرادة)[3] ويقــول: (فقمت إلى الفرس فأســرجته، ثم ركبت، ونســيت الســوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح. فقالوا: لا، والله لا نعينك عليه بشيء. فغضبت، فنزلت، فأخذتهما، ثم ركبت، فشددت على الحمار، فعقرته)[4] (فأتيت إليهم فقلت: قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه. فحملته حتــى جئتهم به، فأبى بعضهــم، وأكل بعضهم. فقلت: أنا أســتوقف لكم النبي ﷺ)[5] (فطلبت النبي ﷺ، أرفع فرســي شــأواً وأسير شــأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جــوف الليل. قلــت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بـ: تعهن[6] وهو قائل الســقيا[7]. فقلت: يا رسول الله، إن أهلك «أصحابك» يقرؤون عليك السلام، ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانتظرهم «ففعل»[8].

قلت: يا رســول الله، أصبت حماراً وحشياً وعندي منه فاضلة، فقال للقوم: كلوا، وهم محرمون)[9] لأنهم لم يشاركوا في صيده.

شــارك ﷺ أصحابه في تلك الأكلة، حيث يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (وخبأت العضد معي، فأدركنا النبي ﷺ، فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فقلت: نعم.

فناولتــه العضد فأكلها حتى نفدَها وهو محرم)[10] ثم مكث ﷺ وأصحابه بانتظار أصحاب أبي قتادة الذين كانوا يسيرون ويتساءلون (أنأكل لحم صيد ونحن محرمون)[11]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢١).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٦) مكان بين مكة والمدينة.
(٧) أي أنه سيقيل في مكان يقال له السقيا.
(٨) ما بين الأقواس الصغيرة عند البخاري (١٨٢٢).
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٢١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٧٠).
(١١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

لقد (أكلوا، فندموا، فلما أدركوه)[1] ﷺ سألوه فقال ﷺ: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها)[2]. (كلوا فهو طعم أطعمكموه الله)[3]

فأكل الصحابة واطمأنت قلوبهم بالحلال، ثم واصلوا مع رسول الله ﷺ المسير نحو مكة لأداء العمرة في بيت الله الحرام، حتى وصلوا إلى مكان يقال له (عسفان) عندها قرر النبي ﷺ:

التوقف في عسفان ووصول الجاسوس

توقف ﷺ للاستراحة فالسفر شاق وطويل، والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض، والصحابة ينسابون في عالم النوم بعد أن فرغوا من مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة، وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك، فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم، وأفرحتهم، فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم.

وفي الصباح المنعش أحب ﷺ بحاجة أصحابه إلى أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معاً، لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر.. تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر.

يقول زيد بن خالد الجهني وهو أحد الصحابة الذين أصابهم ذلك المطر: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي:

فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي.

وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي)[4]

إن الكواكب لا تضر ولا تنفع، والتعلق بها شرك.. إنها خلق من خلق الله، وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان.. ليستفيد منها.. ليكتشفها ويطوعها ويتفكر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤٧). ومسلم (٧١).

فيها.. أما المشـــركون المتخلفون، فقد أهانوا عقل الإنســـان وانحطوا به إلى مســـتوى يخضع فيه لجلاميد الصخور ورماد اللهب.

نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف.. ليطلقه في الكون.. نزل القرآن يقدم النجوم والشـــمس والقمر والبحار، وكل ما في الســـموات والأرض هدايا للإنسان.. يستمتع بها.. ينعم بها.. يستغلها في رفاهية البشرية جميعاً.. القرآن يقدم الكون للإنسان في علبة هدايا.. يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد.. ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾[2].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾[3].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[4].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾[6].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[7].

القرآن يجعل من الإنسان سيداً في هذا الكون. فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبداً لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد. هذا هو الفرق بين الإنسان موحداً سيداً في الكون، وبين الإنسان مغلولاً بالشرك والأوهام.

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.
(٣) سورة النحل: الآية ١٤.
(٤) سورة النحل: الآية ١٤.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٧) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المطـــر من عند الله، والنجوم من عند الله، ومتى ما اعتقد المســـلم أن نجماً ينزل المطر أو يمنعه، فقد اعتقد شركاً.

حفر الصحابة تلك الكلمات في صدورهم، وأشـــرقت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر، وأقبل راكب من بعيد.. إنه معروف لدى الصحابة ولدى رســـول الله ﷺ، فهو الفارس الذي بعثـــه النبي ﷺ ليرصد تحركات مكة، ويقدم تقريراً مفصلاً عن قريش وموقفها من عمرة النبي ﷺ.

قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ

ترجل الفارس عن مطيته وسلم على رسول الله ﷺ وأصحابه فردوا عليه السلام، وكان ذلك في مكان يقال له (غدير الأشـــطاط) قريب من عسفان نحو مكة، حيث كان النبي ﷺ (بعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)[1] الذي أرســـله، وهو بشر بن ســـفيان ولما (لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل[2]، قد لبسوا جلـــود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلهـــا عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم)[3] (إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك)[4] (قال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين ســـائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلـــوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[5]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٢) الأطفال والنساء.

(٣) حديث حســـن رواه ابن إســـحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وغيره: حدثني الزهري عن عروة عن المســـور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٥) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وهو الحديث السابق.

كلمات مملوءة حسـرة وألماً.. حلف بعدها ﷺ أن لا يترك الجهاد لنشر رسالة الله التي بعثه الله بها إلى جميع الناس، حتى ينتشـر في كل الأرض أو تنقطع سـالفته، أي يفارق رأسـه جسـده، أو تفارقه روحه.. عزم حديد وبأس شديد، لكن دون تهور.. دون انفراد بالرأي والقرار. لقد التفت ﷺ بحديثه إلى أصحابه الذين تجشموا معه الصعاب والألم، وخاطبهم كعادته، فرأيهم له وزنه، وقراراهم له قيمته.. شـاورهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقاً، لتكون الشورى بعده واجبة على كل قائد وإمام:

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب

استشـار ﷺ أصحابه كلهم دون اسـتثناء.. دون تعيين، ثم أصغى جيداً. بعد أن قال: («أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عيناً من المشـركين، وإلا تركناهم محروبين»..؟

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال ﷺ: «امضوا على اسـم الله»)[1] بعد أن أخذ برأي صاحبه الحكيم رضي الله عنـه.. مضى النبي ﷺ وأصحابه، وكان هناك من يراقبهم من بعيد، ولما صار النبي ﷺ بين ضجنان وعسفان تسللت سرية خالد بن الوليد، وكان خالد من القادة الأفذاذ، الذين لا يتهورون بإلقاء جيوشهم في أتون محرق من الحماس والإيمان بقيادة النبي ﷺ، لذلك فكر بطريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون.

شـاهد خالد بن الوليد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة.. لا يلتفتون.. لا يكلم بعضهم بعضاً.. ينسـابون في خشوع غامر مع ربهم.. لا يشتغلون بشيء أثناء قيامهم وركوعهم وسجودهم، إلا التوجه نحو الله. هذا التوجه الذي أفرح خالداً والمشركين معه.

لقد وجدوا في هذا الخشـوع ثغـرة ينقضون منها على جمـع المؤمنين ليفنوهم، ولذلـك اتخذ خالد بن الوليـد قراراً بالهجوم على جيش الإسـلام وهم يؤدون صلاة

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨).

العصر، لكن شيئاً حدث، وغير من طريقة الصلاة في تلك الظروف، التي يحملق فيها الرعب من كل مكان على المؤمنين.

كيف صلى النبي ﷺ العصر

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (نزل ﷺ بين ضجنان وعسفان)[1] (فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم)[2].

ثم قالوا: (إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم، وهي «العصر»، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة)[3]. (فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح: فصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً.

ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء.

ثم ركع ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع ﷺ فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه.. والآخرون قيام يحرسونهم.

فلما جلس ﷺ جلس الآخرون، فسجدوا فسلم بهم، ثم انصرفنا.

فصلاها ﷺ مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)[4] عندها أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة، فالصلاة وإن كانت خشوعاً واتجاهاً إلى الله

---

(١) حديث صحيح رواه النسائي (٣/١٧٤) والترمذي (٣٠٣٥) (والطبري في التفسير - من طريق عبد الصمد، حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة.. عبد الله بن شقيق تابعي ثقة وتلميذه سمع منه وهو صدوق.. وعبد الصمد بن عبد الوارث صدوق انظر التقريب (١/٣٠١ - ٤٢٢ - ٥٠٧).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤/٥٩) والطبراني (٥/٢١٣) (٥/٢١٦) وغيرهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي عياش رضي الله عنه ومنصور ثقة ثبت لا يدلس - التقريب (٢/٢٧٧).

(٣) هو حديث أبي هريرة السابق.

(٤) هذا حديث أبي عياش الزرقي السابق.

بكل المشاعر، إلا أنها لا تعني التسمر. فالنبي ﷺ كان يفعل أشياء كثيرة أثناء صلاته، فهو يحمل الحسن رضي الله عنه في صلاته، وينزله إذا أراد الركوع، ثم يحمله ثانية إذا أراد القيام[1]

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يصلي والباب عليه مغلق، فجئت، فاستفتحت، فمشى ففتح لي ثم رجع إلى مصلاه)[2]

وكان ﷺ يرد السلام وهو يصلي، ولكن بالإشارة بالكف، أو بالإصبع.

يقول صهيب الرومي رضي الله عنه: (مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فرده إشارة بإصبعه)[3]

وها هو يتدخل في صلاته ليفك اشتباكاً بين طفلتين. يقول أحد الصحابة: (جاءت جاريتان من بني عبد المطلب اقتتلتا، فأخذهما، ففرغ بينهما فنزع إحداهما من الأخرى)[4] ويقول أنس: (إن النبي ﷺ كان يشير في الصلاة)[5]

وتقول عائشة: إنها كانت تنام وأرجلها أمام النبي ﷺ وتقول: (لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وأنا معترضة بين يديه، فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فضممتها إليّ ثم يسجد)[6].

إذا كان ﷺ يفعل ذلك وهو في ساعات السلام.. في داخل بيته، فساعات حمل السلاح في ساحات الحرب والخوف أدعى وأكثر ضرورة.

---

(١) مر معنا عند الحديث عن الحسن رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٢) وغيره من طريق بشر بن المفضل حدثنا برد بن سنان عن الزهري عن عروة عن عائشة. بشر ثقة ثبت وبرد صدوق انظر التقريب.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٥) وغيره من طريق بكير عن ابن عمر عن صهيب والنسائي في الكبرى من طريق الليث عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند صحيح.

(٤) سنده صحيح رواه أبو داود (٧١٦) وغيره من طريق منصور بن المعتمر عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبي الصهباء عن ابن عباس. وأبو الصهباء ثقة وليس كما توحي ترجمته في التقريب فقد وثقه العجلي لفظياً وأبو زرعة وجرحه غير مفسر.

(٥) حديث صحيح -السابق (١٧٧/١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (٧١٢).

فهم المشـــركون أن الصلاة ليست تســـمراً وتحنيطا للأعضاء، بل خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان.

أدرك المشـــركون ذلك، وكان ﷺ أذكى مما تصوروا، فقد بث عيونه ترصد الأرض المحيطة بالمؤمنين، أما خالد فقد انســـحب إلى مكان يقـــال له (كراع الغميم) وجاءت عيـــون النبي ﷺ تخبره فقال لأصحابه: (إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين.

فوالله ما شـــعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ)[1]، وســـارت من حوله عيونه، ثم جاءته أخبار خالد مرة أخرى، فأمر بتغيير طريق الســـير.. كل ذلك لأنه لم يخرج للقتال، بل خرج لزيـــارة بيت الله وأداء العمرة، لكن قريشـــاً تبحث عن المتاعب، بينما كان ﷺ يتجنبها، حتى لقد سلك من أجل تجنب الحرب طريقاً وعراً شـــاقاً كي يتفادى مواجهة قريش، وفي ذلك الطريق الوعر لاحت ثنية صعبة التجاوز. لكن النبي ﷺ بشر الصحابة أن:

من عبر الثنية غفر الله له

يقـــول أبو ســـعيد الخدري رضي الله عنـــه: (خرجنا مع النبـــي ﷺ حتى إذا كنا بعســـفان قال لنا رســـول الله ﷺ: «إن عيون المشركين الآن على ضنجان، فأيكم يعرف طريق ذات الحنظل»؟

فقال رســـول الله ﷺ حين أمسى: هل من رجل ينزل فيسعى بين يدي الركاب[2]؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله.

فنزل، فجعلت الحجارة تنكبه[3]، والشجر يتعلق بثيابه. فقال رسول الله ﷺ: «اركب. ثم نزل آخر، فجعلت الحجارة تنكبه، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: اركب. ثم وقعنا على الطريق حتى سرنا في ثنية يقال لها (الحنظل) فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنو إسرائيل» قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٢) أي يمشي أمام الناس.
(٣) تضرب رجله وتصيبه.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥٨.

لا يجوز[1] أحد الليلة هذه الثنية إلا غفر له. فجعل الناس يجوزون، وكان آخر من جاز قتادة بن النعمان في آخر القوم. فجعل الناس يركب بعضهم بعضاً، حتى تلاحقنا، فنزل رسول الله ﷺ ونزلنا)[2].

كان ﷺ يتابع هذا التسابق نحو المغفرة بفرح، وبعد أن عبر المؤمنون كلهم وتجاوزوا تلك الثنية الصعبة.. رأى ﷺ أعرابياً لا يبالي بالبشرى، ولا وزن للمغفرة عنده.. أكلت الدنيا قلبه، فخرج مع المؤمنين عله يحظى ببعض غنيمة من حطام الدنيا.. رأى ﷺ ذلك الحطام الأعرابي، فالتفت إلى أصحابه وبشرهم بالمغفرة ولم يبشر ذلك الحطام بشيء.

يقول جابر رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: من يصعد الثنية «ثنية المرار» فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل.

فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس، فقال رسول الله ﷺ: وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر. فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله، لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، وكان رجل ينشد ضالة له)[3] (وإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له)[4] فضل معها، وكان أضل منها..

لا أدري ما فعلت به الدنيا، ولا ما فعلت ضالته..؟ فقد تركه الصحابة وشأنه، وتوجهوا خلف رسول الله ﷺ الذي انحدر من تلك الثنية على أرض يقال لها (الحديبية) وعندما لامست أخفاف ناقة النبي ﷺ «القصواء» أرض الحديبية توقفت فجأة وبركت.

القصواء تبرك في الحديبية

والصحابة يصيحون بها.. يحثونها على النهوض ويقولون: حل.. حل.. لكنها لم تنهض، ولم تتزحزح عن مكانها، فقد (سار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط

---

(١) يتجاوز ويعبر.

(٢) سنده صحيح رواه البزار (الزوائد - ٣٣٧٢) حدثنا إسحاق بن بهلول، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد. شيخ البزار ثقة تاريخ بغداد ٦-٣٦٦ وشيخه صدوق من رجال الشيخين وزيد وعطاء تابعيان ثقتان وهشام أثبت الناس عن زيد كما قال أبو داود التهذيب ١١-٣٩.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين.

عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل.. حل. فألحت[1]، فقالوا: خلأت[2] القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[3] حبسها الله الذي حبس الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة. ثم قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)[4] (والله لا تدعوني قريش اليوم، إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)[5] (ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل يتبرضه الناس تبرضاً)[6] أي نزل في مكان اجتمع فيه ماء قليل يستسقي منه الناس تبرضاً، أي بأكفهم، وكان فيها بئر يقول عنه البراء: (الحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر فدعا بماء، فمضمض ومج في البئر)[7] بعد أن استنزفه (الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش)[8] لكن النبي ﷺ قال للناس: (انزلوا، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله سهماً من كنانته)[9] (ثم أمرهم أن يجعلوه فيه)[10] (فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش الماء بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن)[11] أي بركت حوله رواحلهم، فارتوت عروقهم، واطمأنت نفوسهم، وشكروا خالقهم على هذه النعمة العظيمة، والمعجزة التي أجراها سبحانه على يد نبيه ﷺ، الذي توقف في هذه الأرض بوحي من الله، وهو الآن يستدعي أحد أصحابه واسمه (خراش بن أمية الخزاعي) ليكلفه بمهمة خطيرة، وقد اختاره ﷺ من قبيلة خزاعة (وكانت خزاعة في عيبة[12] رسول الله ﷺ مسلمها، ومشركها،

---

(١) بقيت في مكانها.
(٢) حرنت.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٤) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(٥) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٩) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(١١) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١). وأحمد ٣٢٣ واللفظ له.
(١٢) يثق بهم ويثقون به.

لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة)[1](كانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة)[2] فهم موضع ثقة عند الطرفين، ولم يكتف ﷺ باختيار رسوله بدقة، بل اختار له راحلة مميزة.. لقد أركبه ﷺ على جمله، ثم أمره بالانطلاق، فانطلق ليخبر قريشاً أن:

النبي ﷺ يعرض هدنة وقريش تريد قتل رسوله

(بعث ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب. فلما دخل مكة عقرت به[3] قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابش حتى أتى رسول الله ﷺ)[4] ولولا الله ثم تدخل الأحابش لهلك خراش، لأن الأحابش وهم حلفاء لقريش فكروا بالعار الذي يجلبه قتل رسول. أما قريش فقد أعماهم الكفر والحقد في ساعة غضب، فضربوا بكل شيء عرض الحائط.

عاد خراش سليماً معافى، وجاءت كوكبة من الفرسان من قوم خراش.. هل كانوا يريدون نصر خراش، أم ماذا؟

من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون

إنهم رجال من بني خزاعة، وقائدهم اسمه (بديل بن ورقاء الخزاعي) وكانوا من الرجال الذين يُظهرون النصح لرسول الله ﷺ، وهم وقومهم خزاعة محل ثقة النبي ﷺ (فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال خزاعة، فقال لهم كقوله لبشير ابن سفيان)[5] فقد (جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة[6] نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه[7] الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[8]، وهم مقاتلوك، وصادوك عن

---

(١) حديث حسن وهو حديث أحمد الطويل وقد مر معنا (٤/٣٢٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٣) قطعت إحدى قوائمه.
(٤) حديث حسن وهو حديث أحمد السابق.
(٥) حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٤/٣٢٣).
(٦) أي أن النبي ﷺ يثق بهم وهم أهل ثقة ونصح له.
(٧) العد هو الماء الذي لا ينقطع.
(٨) أي معهم الإبل ذوات اللبن والأمهات بأطفالهن.